البنية القبلية بالغرب الجزائري

أواخر الفترة العثمانية

أ/ توفيق دحماني

قسم التاريخ – جامعة الجزائر

----------***----------

ملخص:

طرح عبد الرحمن بن خلدون موضوع القبيلة وعلاقتها بالدولة في بلدان المغارب منذ القرن الرابع عشر، وشرع في التطرق لدراستها منذ ذلك الحين، وألقى اعتبار كبير لدور العصبية والدعوة الدينية في حياة القبيلة. وبالتالي تكمن أهمية النظرية الخلدونية في توصل صاحبها إلى تحليل علمي وشبه مادي لتاريخ القبائل المغاربية، ذلك أن هذه النظرية أعطت أهمية قصوى لعاملين أساسيين لتحليل تاريخ المجتمعات القبلية، أولهما دور العامل الاقتصادي في دراسة هذه المجتمعات، وثانيهما اعتبار العصبية

القبلية المحرك الأساسي لتطور المجتمع القبلي. ومن هنا نجد أن كتابات ابن خلدون ساعدت على تزكية العديد من الأطروحات التاريخية والانثروبولوجية والسوسيولوجية؛ لأن نظرته إلى القبيلة تتمسك بفكرة السكونية، وتمحور التاريخ الدائري.

يلاحظ الباحث في دراسة موضوع القبيلة ببلدان المغارب، تقاسمه من قبل تخصصات مختلفة في العلوم الإنسانية والاجتماعية، فكانت محل اهتمام المؤرخين والاقتصاديين والجغرافيين وعلماء الاجتماع وعلماء الإنسان وغيرهم. ومهما تعددت التصورات والمقاربات حول موضوع القبيلة في بلدان المغارب، فإن مضامين هذا المفهوم ومحدداته تظل نسبية ولا يمكن تعميمها، نظرا لتعدد أصناف القبائل تبعا للملابسات التاريخية وظروفها العامة، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي نشأ فيها المجتمع القبلي وتطور.

لقد كان العثمانيون لا يتساهلون في شأن الزعامات القبلية، وكلما قوية شوكة رجل، أو قبيلة أزاحوها من الطريق، أو أخضعوها بعدة أساليب. ورغم أن القبيلة هي الوحدة الاجتماعية الأولى في البلاد، فإنها ولحد الآن لا تزال من أكثر المواضيع إهمالا في مجال الدراسات التاريخية.

يسعى البحث إلى التدقيق والتحري في المفاهيم والنماذج المتعلقة بالمستوى المعرفي في دراسة الظواهر، من قبيل مخزنة القبائل ببايلك الغرب الجزائري ودواعي ذلك في فترة الحكم العثماني عامة، والفترة الأخيرة منه بشكل خاص.

وعليه كيف يمكن تفسير المجتمع الجزائري وفهمه، خاصة معرفة القبائل المشكلة له ؟

هذا التساؤل ينطلق مما هو خاص، بهدف الوصول إلى معرفة ما هو عام، هذا الأخير لن يتوضح إلا اعتمادا على دراسة تجلياته الخاصة، التي هي هذه القبائل أو تلك؛ بأسمائها بل وبتاريخها الخاص جدا.

وضمن هذه العلاقة الدائرية إذن، يمكن التقدم في الإجابة عن ماهية القبيلة ؟ وما خصائصها ؟ وكيف نمت وتطورت ؟

أولا- القبائل وتنظيمها:

إن القبيلة هي وحدة سياسية للسكان مثل العائلة، ووحدة اجتماعية تتكون من تجمع عدد من الدواوير تنتمي إلى جد مشترك. كما تمثل وحدة اقتصادية واستقلالية إدارية نسبية؛ فكل قبيلة كانت هي التي تضبط أساس الجباية، وتسهر على استخلاصها. إضافة إلى أن القبيلة هي وحدة قانونية، وذلك بتسويتها لجميع النزاعات أمام مجلس المجموعة أو حاكمها.

إن القاعدة الاجتماعية لتنظيم القبائل كانت تتمثل في تجمع عدد من الدواوير أو الخيام، ومجموعة هذه الدواوير تشكل فرقة يحكمها شيخ يعقد اتفاقا على الولاء للعثمانيين، وهذه القبائل والفرق ليست غريبة عن بعضها البعض، حيث كانت تنتمي إلى نسب واحد. وأعلى طبقات النسب هي: الشعب، ثم القبائل، ثم العمائر، ثم البطون، ثم الأفخاذ، ثم الفصائل. [1] وقد كان التقسيم الجاري به في هذه الفترة هو أن الشعبة تسمى صفا، والقبيلة عرشا، والفرقة خروبة.

كانت الصفوف تشكل علاقات تحالف، وقوة عسكرية تقف في وجه أي معتد على أحد أطراف الصف. وقد انتهج العثمانيون سياسة مدهشة مع الصفوف، وذلك بتحريض واحد على الآخر ويفضلون هذا، ويعادون ذاك، ويجعلون المنافسات بينهم حتى لا تتحد فيما بينها؛ فمثلا كانت قبائل براز المتحالف مع الحشم، وصبيح، وسنجاس، وبني أحمد، وبني مناصر، وزطيمة، وبني سليمة، وأغبال تشكل صفا مناهضا لآخر أقل قوة والمتكون من تاشتة، وبني بومالك، وبني زوج زوج، وأولاد قصير، وعطاف، وبني فراح، وبني غمريان. [2]

وإذا كانت الصفوف تتشكل من مجموعة قبائل، فإن أعضاء القبيلة كانوا مرتبطين بعضهم ببعض، حيث يمتلكون قطعة أرض بشكل مشترك، ويمارسون نشاطهم داخلها في المحيط

المحدود، وكان يقودهم شيخ يتولى ذلك. وهذا ما يؤدي بنا إلى التساؤل عن كيفية وصول المرء إلى رتبة الشيخ؟ في الواقع كان يتولى أعضاء الجماعة فيما بينهم بالاتفاق، والتناقش الحر والديمقراطي تعيين العضو الأكثر نفوذا، وبعد ذلك فإن عامل رعاياه معاملة سيئة، أولم يحترم المبادئ، فإن السكان لا يتآمرون عليه، ولا يثورون، بل إن كل قبيلة تتخلى عنه، وتلتحق بقبيلة أخرى، والذي يستقبلهم شيخها، ويرحب بهم. [3] إذن كان الشيخ في القضايا المهمة يستشير رؤساء الخيمة، أو العائلة في الأمور المهمة. وما كان يهم المرء في كل الحالات هو قدرة الشيخ على حمايته، وانتزاع حقوقه من خصومه.

وقد كانت القبائل مثل الصفوف في تنافس فيما بينها، وهذا ما نجده مثلا بين قبائل بلال في ثنية الحد مع جيرانهم أولاد عياد، وكذلك بين الحشم والسود، وبين هبرة ومجاهر الذي تمثل في القول الذي كان متداولا آنذاك: «شرط مجاهر على هبرة». [4]

كانت القبيلة مقسمة إلى عدد من الفرق أو الخروبات؛ والخروبة نسبة إلى ثمرة الخروب التي تحتوي على عدد من الحبوب، وهي الحبات التي تمثل القبيلة. وتتألف الخروبة الواحدة من دشرات يسكنها عدد من العائلات، وعدد هذه الدشرات من واحد إلى ستة حسب كل خروبة. أما عدد الخروبات في القبيل الواحدة فيتراوح مابين خمسة إلى ستة، وأحيانا من عشرة إلى إثنا

عشر. وأقوى الخروبات هي التي تتمكن من تجنيد 150 إلى 200 رجل مسلح ببندقية. كما كان شيوخ الخروبات يشكلون منهم شيخ القبيلة.[5]

ثانيا- تقسيم القبائل قبل فتح وهران:

كانت قبائل المنطقة قبل تحرير وهران مقسمة إلى قسمين: قسم تابع للإسبان بنواحي وهران، والذين كانوا يدعون بـ: «المغناطيس»، وكانت إسبانيا تسميهم عرب السلام (*Moros de Paz*)، أو "السرايا الأهلية لجيش ملك إسبانيا"، فكانوا جنودا للإسبان، يشبهون الصبايحية في لباسهم الواسع من برانس، وسراويل، وكان على رأسهم في الفترة الأخيرة للوجود الإسباني، بن جامود، والمنصور بن عوزر. [6] ومن أمثال هذه القبائل نذكر: أولاد عبد الله، وأولاد قلطة، والغروزي، وبني شقرا ن، والسقراطة، وبني عرزاوية، وسويد، والجفرة، وغيرها. [7] وعموما كان عددها ثماني قبائل كبرى هي: شافع، وغمارة، وكريشتل، وغمرة، وقيزة، وأولاد عبد الله، وأولاد علي، والونازة. [8] وتنتمي إلى قبيلتين كبيرتين هما بني راشد الزناتية، وبني عامر العربية.

أما القسم الآخر من القبائل فكان خاضعا للعثمانيين، وتابعا لبايات معسكر، وهم الأغلبية.

ثالثا- تقسيم القبائل بعد تحرير وهران:

بعد فتح وهران أصبح الشعب عموما مقسما إلى أربع طبقات فيها طبقتان بارزتان؛ طبقة الخاصة وهي ذات الامتيازات، والمناصب، وطبقة العامة المغلوبة على أمرها. والبايلك لم يكن يعتد إلا بالخاصة، أما العامة فكان ينظر إليهم إلا على أساس أن تجبى منهم الأموال. وفيما يلي لمحة عن قبائل المنطقة.

أ- قبائل المخزن:

كانت تتمركز هذه القبائل في الأماكن الإستراتجية، وفي ضواحي المدن والحاميات لتسهيل حركة مرور الجنود، وفي الأسواق، وبجانب مخازن الحبوب والطواحين وغيرها. وتكلف بحراسة الأبراج، والحصون، والممرات الرئيسية، والمسالك الجبلية. وكان يعتمد عليها في استخلاص الضرائب وحفظ الأمن، وكانت تتمتع بالإعفاء من الضرائب غير الشرعية.

كانت قبائل المخزن في بايلك الغرب تظهر على الخريطة في توزيعها على شكل خطين متوازيين؛ الأول يأخذ جوانب الجبال التلية، من سبخة وهران إلى منتصف وادي الشلف، والثاني في أطراف الصحراء من سعيدة إلى سبدو، وهو ما كان يسمح بمراقبة وإحكام القبضة على قبائل الرعية.[9]

لقد ذكر المزاري أن مخزن وهران يتشكل من قسمين: شرقي وهو: المكاحلية، وأولاد سيدي عربي، وأولاد العباس وغيرهم من مينة إلى واد الشلف. وغربي وهو الدواوير، والزمالة والغرابة، والبرجية. [10] وذكر "استرهازي" أن مخزن وهران يتشكل من سبع عشرة قبيلة هي: الدواوير، والزمالة، والغرابة، والبرجية، والحشم، وبني شقران، وشر بريح، وسجرارة، وبني غدو، والمكاحلية، وأولاد أحمد، وأولاد بوعزازة، وعكرمة، وأولاد سلامة، وأولاد العباس، وأولاد خويدم، وعبيد شراقة. [11] وقد كان لدى الدواوير 129 منزلا تشكل 23 تجمعا سكنيا، وللزمالة 30 قرية أو ضيعة تحتوي على 161 منزلا، وللغرابة 138 منزلا تكون 23 قرية. وكانت قرى بني شقران بنواحي معسكر تشكل 122 منزلا. [12] وكانت الدواوير، والبرجية يتناوبون الخدمة ويتداولونها، أما الزمالة، والغرابة، والحشم، كانوا فريقا صغيرا متحدا. وكان قائد الدواوير يدعى قائد أغا، يتحكم في الدواوير والبرجية، والحشم، وأولاد عيسى أبو العباس، واليعقوبية الغرابة وغيرها، أما قائد الزمالة فكان له خمس قبائل فقط هي: الزمالة، والغرابة، واليعقوبية، ومجاهر، وحميان. وقد كان إقليم الدواوير والزمالة المهم محددا بالبحر الشمال، وواد المالح غربا، وحمام بوحجر، وعين العربة في الجنوب الغربي، وجبال تسالة جنوبا، ووادي تليلات شرقا. وفيما يلي نظرة موجزة عن أهم القبائل:

أولا- الدواوير:

تعتبر القبيلة الأقوى في مخزن وهران، استقرت في المنطقة سنة 1163هـ/ 1750م، وتتربع على مساحة أراضي تناهز 140 ألف هكتار، [13] على بعد ثلاث مراحل من مدينة وهران في سهل خصب. هذه الأراضي كانت قبل قدومهم، ملكا للأندلسيين. وقد كانت رئاسة الدواوير تدور بين ثلاث فرق أومجموعات هي:

البحايثية: ينتمون إلى قبيلة سويد العربية، وهناك من ذكر بأنهم بقايا جيش مولاي إسماعيل تكاثرت فروعهم، وأعقابهم، والدخلاء، فيهم حتى تكونت منهم الدواير، [14] يعتبرون من أكبر الفرق المنتسبين إلى أولاد البشير البحثاوي، وكانوا يسكنون في نواحي العمرية بين وهران وتلمسان، وينقسمون إلى سبعة فروع هي : أهل بلحضري، وأهل مصطفى بن إسماعيل، أو القرايدية، وأهل المزاري، وأهل القاضي، وأهل قدور بن إسماعيل وأهل الزوابرية، والكواحلية.

الكراطة: وهم من الراشدية بمدينة الكرط إحدى مدن غريس الغربي، وهم عائلة أولاد شريف. كانوا يتكونون من سبعة دواوير هي: شرايفة، وكراتسة، وكراطة، وفراطسة، وأولاد بن ساعد، وعائلة المرابط أولاد سيدي البشير، وأغواط بوحجر؛ قسم من بني عامر بالأغواط استقروا عند الدواير. [15]

البناعدية: نسبة إلى أجواد واد الحمام من الحشم، وكانت الرئاسة لعائلتي أولاد شريف وأولاد بن عفان التي جاءت منها مصطفى بن إسماعيل.

ثانيا- الزمالة : إن سبب تسمية الدوايرو الزمالة يعود إلى عهد الباي محمد الكبير، حيث حدث طاعون، أو وباء، فانتقل الباي وحاشيته إلى خارج المدينة لبلاد أولاد سليمان إحدى بطون بني عامر، ونصيب خيمة حمراء من الوبر ليسكن فيها، وجعت خداما في دائرة خيامه، فسموا بالدوايرو، وعين آخرون لحمل أثقاله، وأثقال جنوده فسموا بالزمالة، فأصبحوا زمالة الباي ودوائره.[16] كما أن الدوايرو جمع دوارو هو المدشر الأقل من القرية، والزمالة هي المخزن الثابت من الفرسان، والمخيم الدال على التنقل والترحال.

وكانت رئاسة الزمالة تدور في ثمانية أعراش هي: الشوايلية، والونازرة، والمخاطرية، والمخاليف، والقدادرة، والقرايدية، والمعايزية، والوراردية؛ فالونازة كان يخرج منها قائد القبيلة، وقائد مكاحلية الباي، وكان للقدادرة أغاوية القبيلة، وقائد المكاحلية، أما بني وراد (الوراردية) فكان لها أغوية الزمالة.[17]

ثالثا- الغرابة: يطلق عليهم لفظ العبيد، أو عبيد البوخاري الذين جاؤوا مع مولاي إسماعيل، وانقسمت جيوشه إلى قسمين؛

عبيد الغرابة شمال سبق، وعبيد الشراقة بين واد المقطع وبوقراط.[18] وكانت الرئاسة للغرابة، وفي ثمانية فروع: الوراردة، والعلايمية، والخدايمية، والوناونية، والسهايلية، والمحاميد، والرفافسة، والعوايلية.

رابعا- البرجية: وكانت قيادتها تدور بين النقايبية، والبلاغة الزيانيون بالتناوب، فالأولى من قبيلة الخلافة أبناء عم الأمير عبد القادر، والثانية نسبة إلى جدهم اعمر البلغي الزياني.[19]

خامسا- الحشم : لفظ الحشم مأخوذ من الحشمة، وهي الحياء أو الغضب.[20] وقد كانوا خداما وحشما لبني زيان ملوك تلمسان. وأصبح الحشم قبيلة مخزنية في حدود سنة 1790م/ 1205هـ وذلك بأمر من الباي محمد الكبير، وكانوا مقسمين إلى عدة فرق؛ فهناك فرق في وادي الحمام مع المشاشيل يشكلون مخزنا، أما البقية فكانت تابعة لمخزن أغا الدوائر.

كان للحشم امتياز امتلاك أراضي الضفة اليسرى من واد الحمام حتى سهل هبرة، وكانوا لا يدفعون كثيرا من الضرائب، كما كانوا طوال لوجود العثماني لا يتخلون عن سياستهم التوسعية.[21]

سادسا- المكاحلية : كانت هي الأخرى قبيلة مخزنية، وتضم القبائل التالية: أولاد أحمد، أولاد بوغرارة، وأولاد العباس، وأولاد سلامة، وهم من عبيد البخاري.

سابعا- القبائل الأربعة لبني شقران، وشر بريح، وسجرارة وبني غدو : كان يقود هذه القبائل قائد واحد يدعى قائد العواوة. وكان البعض من هذه القبائل موضوعا ضمن قبائل الرعية. [22]

بعد هذا العرض الموجز عن قبائل المخزن نجد أن مخزن وهران كان يعتبر من أبرز مخازن الجزائر العثمانية،من حيث قوته العسكرية، وشجاعة رجاله، وشدته في الحروب وهذا ما جعل الدولة آنذاك تعتمد عليه كثيرا في شؤونها.

ب- قبائل الرعية : كانت تتكون من مجموع القبائل الخاضعة مباشرة للبايلك، وتقيم في القرى الدواوير التي كانت تراقبها قبائل المخزن، ويشكلون غالبية السكان.

إن نظام تحديد فبائل الرعية في بايلك الغرب كان متشابكا، ومعقدا في التبعية، والولاء لعدة جهات، وفي الاستقرار من جهة إلى أخرى، فكان بذالك مثل لعبة الشطرنج في تعقدها وتداخلها. [23] وكانت قبائل الرعية توجد عموما في موضع التافنة، وتشكل شريطا بسبدو ومقره، وتليلة، وجبال تسالة، وطفراوي إلى الشطوط، وسعيدة، وفرندة، وتيارت، وزمورة، وفي جنوب وشمال مازونة، وغيرها. وأغلب هذه القبائل كان يسكن في الجبال الملائمة للزراعة، أو في الهضاب الداخلية. وفيما يلي نظرة على هذه القبائل.

I- **رعية الباي** : كان الباي يشرف مباشرة على النجوع المشكلة للقبيلتين القويتين، بني عامر ومجاهر، وعند غيابه يتولى خليفة الكرسي مع القياد المكلفين بهما، وهما قائد بني عامر لقبيلته، وقائد مستغانم لمجاهر.

كانت قبيلة بني عامر تتشكل من ثلاثة بطون كبرى هي: بنو يعقوب أو اليعقوبية، وشافع وبنو حميد، فشافع مثلا كان أصل أرضهم بين السبخة وعين البيضاء، وحمام بو حجر وواد الملح، لكنهم طردوا منها من قبل الدواير. وقبل سنتين من الاحتلال تحصلوا على ترخيص من الباي حسن بالعودة إلى أرضهم شرط الرضوخ للمطالب المخزنية. وقد كان عدد مساكنهم في القرن 12هـ/ 18م حوالي عشرون دوارا يكونون أربعة بطون هي: الشقارة، وأولاد مطرف، وأولاد صالح، وأولاد بالغ. [24] وكانت قبيلة بني عامر تتكون من قيادتين كبيرتين؛ بني عامر الغرابة، وبني عامر الشراقة،أما الرئاسة فكانت لديار أولاد دموش، وأولاد حمد بن عمارة، وأولاد أحمد بن خليفة.

قام الباي محمد الكبير بعد تحرير وهران بوضع قبيلة من الدواوير في وسطهم لمراقبتهم، وهي قبيلة الحساسنة، على إثر ظهور الدرقاوية في أوساطهم. لكن بني عامر لم يذعنوا دائما للعثمانيين، وقاوموهم، ووجدوا في الثورة الدرقاوية حافزا على العصيان والثورة التي شاركوا فيها سنة 1803م/ 1204هـ. [25]

أما قبيلة مجاهر فكانت النجوع المشكلة لها هي: أولاد بوكامل، وأولاد معلف، والغفارة، وأولاد عيناس، وأولاد شافع.[26]

II- **رعية الخليفة** : كل ما كان يهم الخليفة هو ضمان المواصلات إلى الجزائر، لذلك كان يركز على حوض الشلف ونواحي تنس.فبمحيط الشلف كانت توجد 23 قبيلة،وبنواحي تنس 12قبيلة، أما القبائل التي كانت تحت نفوذه؛ ففي السهول نجد عياشة، وبني زروال، وأولاد بورحمة، وأولاد خلوف، وزريقة، وعشاعشة وأولاد يونس، أو شرفاء الجبل، وبني زنطيس، وبني مديونية، وبني مدون، وصبيح، [27] وحميس، وأولاد فارس، (تابعين لقائد مكاحلية الخليفة)، وأولاد قصير، وسنجاس، والعطاف، وبني حمد. أما في الجبال فهي: بني وراغ، وبني مسلم (جزء منها كان تابعا لقائد مكاحلية الباي)، وحلوية (قسم منها كان تابعا لأغا الزمالة)، وشكلة، والبصرة، ومطامطة، والونشريس، (أي قبائل جبال الونشريس)، وبني بدوان، وأولاد عياد، والبسناس، التي تعتبر آخر قبيلة تابعة للخليفة، ومنها يدخل قائد جندل.

III- **رعية قائد جندل**: كان يمتد نفوذه إلى ثنية الحد التي كان بمحيطها 11 قبيلة، وإلى أقصى شرق الونشريس حيث نجد يتحكم في قبيلتي أولاد عنتر، وأولاد هلال، وكانت رعيته الأساسية تتكون من قبائل زوج زوج (زقزق) وعبيد سدرة، وبني معيدة، وبني بوراشد.[28]

IV- **رعية فليتة** : كانت قبيلة فليتة تشمل على بطون وعشائر عديدة، بين غليزان، وتيارت. كان يعين لها قائد مهم لخطورتها. كانت تضم عموما 21 بطنا أهمها: سويد، وأولاد رزين، وأولاد بوعلي، والعنترة، وأولاد سيدي علي، ومنداس، وعكرمة الغرابة، والشراقة، والحساسنة، وبني درغن...الخ. وقد كان يشرف على فليتة وراثيا عائلة سيدي العربي.[29]

V- **رعية نواحي تلمسان** : كان بتلمسان؛ قائدان قائد المدينة وقائد الجبل، فالأول كان يتحكم في بني وزان، والغسل، وأولاد سيدي العبدي، وبني سنوس، وبني ورنيد، وولهاصة. أما الثاني فيتحكم في الجويدات، وأولاد رياح، وأولاد رياش، وبني صميل، وبني بو سعيد، وغيرها.[30]

VI- **رعية اليعقوبية**: اليعقوبية منطقة تقع جنوب معسكر إلى غاية الشط الشرقي. وقد كانت مقسمة إلى فرعين؛ غربية تابعة إلى أغا الدوايرن وشرقية تابعة إلى أغا الزمالة. وأهم قبائلها هي: المهايلي، وأولاد بالغ، والجعفرة، وبني مطهر، والأحرار الغرابة، وحميان ببطنيها الغربي والشرقي. وفي بلاد اليعقوبية لم يكن يعمل بنظام الأوطان، وإنما كان يعتمد على نظام شبيه بالمخزن، والذي يلغي جزئيا التدخل العثماني.[31]

ج- **القبائل الحليفة** : كانت هذه القبائل تعتمد على النفوذ الروحي لرجال الطرق والزوايا وعائلات المرابطين، وهذا ما نجده في قبائل أولاد سيدي الشيخ التي كانت حليفة ومقربة من البايلك، الذي كان يقدم لها الهدايا والترضيات في مقابل حفظ الأمن في منطقتها، وضمان تحصيل الضرائب من القبائل التابعة لها. وكذلك نجد سكان الجنوب مثل مدينة عين ماضي التي كانت عبارة عن جمهوريات دينية، لم يكن يشدها إلى البايلك سوى تحالف مؤقت، كان يضعف دوما مع الثورات والتمردات. [32]

د- **القبائل المستقلة:** لقد كانت هذه القبائل في منأى عن البايلك، وممتنعة عن تلبية المطالب المخزنية المختلفة، فكانت بذلك قبائل عدة على هذه الحالة.

كانت أغلب هذه القبائل في الناحية الغربية يقطن في المناطق الجبلية الوعرة، أوفي أقصى الحدود الغربية، أو في جنوب الهضاب العليا؛ مثل سكان الونشريس، وسكان وجر بالجبال اليمنى لوادي سوماطة، الذين لم يكونوا يدفعون أي ضريبة للبايلك، وكذالك سكان الأنجاد بجبال طرارة على الحدود المغربية. [33] وكانت أغلب هذه القبائل تطلب الترحال أمثال الأحرار، والمهايا، وبراس، وبني مناد وغيرها.كما أن معظمها كانت منطوية على نفسها محافظة على حريتها. [34] وأن بعضها لم يذعن أبدا للبايلك مثل

قبيلة سويد غرب مليانة التي كان العثمانيون يجبون منها ضرائب ثقيلة.[35]

رابعا- القدرات العسكرية للقبائل:

لا تكتمل الفائدة مادمنا نتحدث عن الزعامات القبلية دون إعطاء نظرة عليها، وذلك بمعرفة مقدرتها العسكرية، وما كانت تستطيع أن تجنده من فرسان ومشاة.

لقد أشار إحصاء الفرنسي في البدايات الأولى للاحتلال، إلى وجود حوالي مائة قبيلة في بايلك الغرب، كانت مؤهلة لأن تزود البايلك بـ: 250 ألف إلى 3000 ألف محارب.[36]

وكانت قبائل الدوايرة، والزمالة، والغرابة، والحشم، والبرجية، في عهد محمد الكبير تستطيع أن تزود البايلك بأربعة آلاف فارس. وفي بعض الأحيان كانت قبيلتا الدوايرة، والزمالة تزودانه بعدد ستة آلاف فارس والكثير من المشاة.[37] وكانت قبيلة الغرابة في آخر العهد العثماني تستطيع أن تجند ألف وخمسمائة رجل.[38]

وفي ما يلي جدول تقدير فرسان البايلك لـ "استرهازي".[39]

القبيلـة	الفرسان
- الدوايـر	1500
- الزمالة	900
- الغرابة ويسمون كذلك الزمالة - الشراقة	200
- الحشم	2000
- البرجية	500
- شجرارة بني شقران شربريحة بني غدو العوارة	100
- المكاحلية	200
- أولاد حمد، وأولاد بوقرارة	50
- أولاد عدة - أولاد زرفة - أولاد علجة ويسمون أولاد سلامة	100
- عكرمة	100
أولاد العباس	200
أولاد خويدم	100
أولاد خضرة	50
أولاد قويدر	50
عبيد الشراقة	50

والجدير بالملاحظة في هذا الجداول، أن القبائل المخزنية في بايلك الغرب، كانت تختلف قدراتها العسكرية من قبيلة إلى أخرى. فإذا كان البعض منها لها عدد محدود من الفرسان، فإن البعض الآخر كان له عدد لا يستهان به. إضافة إلى ذلك نستنتج أن بعض القبائل فقط هي من كانت تشكل غالبية فرسان المخزن الذين كان يعتمد عليهم البايلك، وفي طليعة هؤلاء نجد الحشم الذين كانوا يشكلون لوحدهم حوالي ثلث فرسان، وكذلك أزيد من الثلث بقليل لقبيلتي الدوايروالزمالة، ويبقى أقل من الثلث يتوزع على كل القبائل المخزنية الأخرى.

فضلا عن هذه القبائل المخزنية فقد كانت الرعية لها أيضا مؤهلات حربية كبيرة وهذا ما نجده مثلا في قبيلة بني عامر،التي كانت في عهد المشرفي تستطيع أن تجند عشرة آلاف فارس، والكثير من المشاة. [40]

وفيما يلي جدول تقديري مقارن لـ "تاتارو" سنة 1249هـ/ 1833م، و"مارسال" سنة 1251هـ/ 1835م، اعتمادا على وثائق عربية جمعها ضباط فرنسيون. [41]

القبائل	فرسان		مشاة	
	تاتارو	مارسال	تاتارو	مارسال
- مجاهر	1000	4000	500	8000
- فليتة	2000	400 - [42] 5000 -	2000	800 - 10000 -
- عكرمة الشراقة	800	1000	400	3000
- صبيح	1000	3000	1000	6000
- أولاد قصير	900	1000	600	2000
- سنجاس	800	3000	1200	5000
- بني وزان	100	400	50	1000
- أولاد خويدم	300	500	100	1000
- بني غدو	800	300 -	200	1000
- المخالية		600 -		1000
- سيدي العربي		150؟ - [43]		300؟
- أولاد العباس		1000 -		3000

إن الملاحظة التي تتبادر إلى الذهن في هذا الجدول هو التفاوت الكبير بين تقدير قوات القبائل، بين كل من تقدير تاتارو، ومرسال رغم عدم وجود فارق زمني كبير بين الإحصاءين والذي لا يتعدى سنتين. وهو ما يعني أن هذه الأرقام تبقى نسبية. إضافة إلى أنه ربما يرجع إلى عوامل أخرى، وهي تزايد أعمال الاحتلال، وفي المقابل تزايد مقاومة الأمير عبد القادر التي اقتضت تجند القبائل لذالك، وهذا ما نلاحظه من تقديرات "مارسال" التي تفوق بأضعاف تقديرات "تاتارو".

إضافة إلى ذلك نجد من خلال هذا الجدول المؤهلات الضخمة التي كانت تتوفر عليها قبائل الرعية، والتي تفوق كثيرا قدرات قبائل المخزن، لكن هذا لا يعني بالضرورة ضعف هذه الأخيرة. كما أن إحصاء استر هازي كان، ومن خلال روايته، قبل الاحتلال، فلذلك نلاحظ الاختلاف والتباين. ولتوضيح ذلك نذكر مثلا؛ قبائل عكرمة، أو أولاد خويدم، أو بني غدو أو أولاد العباس، وغيرها حيث نلاحظ ارتفاع عدد فرسانها في هذا الجدول مقارنة بالجدول السابق.

الهوامش:

[1] الأمير عبد القادر: **مذكرات، سيرته الذاتية** ، تحقيق، محمد الصغير بناني وآخرون، ط: 3، شركة دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 1998، ص: 82.

[2] C. Bontems: ***Manuel des institutions algériennes*: De la domination turque à l'indépendance**, Éditions Cujas, Paris, 1976, p: 62.

[3] وهذا ما ذكره "بنانتي" (*Pananti*) نقلا عن "لوسات فلنزي"، **المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790 – 1830**، ترجمة حمادي الساحلي، سراس للنشر، تونس، 1994 ص: 129-130.

[4] M. Boudin: «***Itinéraire historique et légendaire de Mostaganem et de sa région***.», in, Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran, T: 54, Oran, 1933, pp: 201-202.

[5] M. P. Genty de Bussy: ***De l'etablissement des Francais dans la Régence d'Alger***, 2T, Paris, 1835, T: 01, p: 72.

[6] ♀♀ J. Cazenave: «***Pages d'histoire algérienne, une fête à Oran en 1772***. », in, A.L, n° 2, «***Alger***», 1923, p: 155.

[7] أحمد توفيق المدني: **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792**، ط 03، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص: 449-450.

[8] عبد القادر المشرفي: **بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر** ، تحقيق وتقديم، محمد بن عبد الكريم، مطبعة الحياة، بيروت، د.ت، ص: 08.

[9] M. Emerit: «***Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIXe siècle***», in, Annales. Économies, Sociétés, Civilisations Volume 21 Numéro 1, Paris, 1966 p: 52.

[10] مرجع سابق، ج: 1، ص: 275.

[11] op.cit, p: 266.

[12] Ministère de la guerre: «***Du gouvernement***», in, **Tableau de la situation** des **établissements français dans l'Algérie**, Imprimerie royale, Paris, 1839, p: 726.

[13] R. Tinthoin: op.cit, p: 32.

[14] محمد السليماني: **اللسان المعرب عن تهافت الأجنبي حول المغرب** ، ط:1، مطبعة الأمنية، الرباط، 1971، ص: 77-78.

[15] R. Tinthoin: ***Colonisation et évolution des genres de vie dans la région Ouest d'Oran de 1830 à 1885***, Impr. Fouque, Oran, 1947 p: 37.

[16] محمد بن الأمير عبد القادر: **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر** ، 2ج المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903، ج1، ص: 217.

[17] R. Tinthoin: op.cit, p: 39.

[18] يحي بوعزيز: «**حديث حول محاربة الأمير عبد القادر للشيخ التيجاني** .»، منشور في كتاب للحاج مصطفى بن التوهامي، سيرة الأمير عبد القادر وجهاده، ط: 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص: 354.

[19] **ابن عودة المزاري:** طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، **تحقيق ودراسة، يحي بوعزيز، 2ج، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ج:1، ص: 30-32.**

[20] الطيب بن المختار الغريسي: **القول الأعم في بيان أنساب قبائل الحشم** ، منشور ضمن مجموع، مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961، ص: 330.

[21] E. Lespinasse: «***Notice sur le Hachem de Mascara***.», in, Revue Africaine, T 21, Alger, 1877, p: 141.

[22] W. Esterhazy: ***De la* domination *turque dans l'ancienne régence d'Alger***, Librairie de la Charles Gosselin, Paris, 1840, p: 266.

[23] P. Boyer: ***L'évolution de L'Algérie Médiane (ancien département d'Alger de 1830 à 1956.)***, A. Maisonneuve, Alger-Paris, 1960, p: 46.

[24] عبد القادر المشرفي: مصدر سابق، ص: 26.

[25] P. Boyer: «***Historique des béni Ameur des origines au sénatus Consulte***.», in, Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, n° 24, Aix-en-Provence, 1977, p: 56 et 85.

[26] W. Esterhazy: op.cit, p: 278.

[27] كانت قبيلة صبيح تقيم في حوض الشلف: تتكون من ستة بطون كبرى، إضافة إلى ثلاث أخرى في الظهرة، وبين مستغانم والشلف. عن/

- A. Rousseau: «***Chronique du Beylik d'Oran***.», in, Moniteur Algérien, n° 1395, Alger, 1855, p: 01.

[28] W. Esterhazy: op.cit, pp: 274-276.

[29] A. Berque: «***Esquisse d'une histoire de la seigneurie Algérienne***.», in, R.M. n° 30, 1849, p: 175.

[30] W. Esterhazy: op.cit, p: 271.

[31] Ibid, p: 268.

[32] رولان مرسنيه، وأرنست لايروس: **تاريخ الحضارات العام** ، إشراف، موريس كروزيه، ترجمة يوسف أسعد، وفريد داغر، ط: 3، ج: 5، منشورات عويدات، بيروت-باريس، 1994، ص: 314.

[33] Peyssonnel et Desfontaine ***: Voyages dans les régences de Tunis et d'Alger,*** Publie par M. Dureau de Malle, Libraire de Gide, Paris, 1838, pp: 144-145, et 152.

[34] P. Boyer: «***La Conquête de l'Algérie***.», in, ***Initiation à l'Algérie***, Ed Maisonneuve, Paris, 1957, p: 127.

[35] R. Tinthoin: «***La plaine de Relizane avant L'irrigation***.», in, Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie de la Province d'Oran, T73, Oran, 1950, p: 54.

[36] ذكر ذلك "كازناف" على تقرير "فاليجو". والملاحظ أن هدا الرقم كبير، خاصة وأننا ذكرنا سابقا أن سكان الريف في البايلك يقدرون بـ: 600 ألف نسمة فقط. راجع/

- J. Valléjo: «***Contribution à l'histoire du vieil Oran***.», trad. et annoté par J. Cazanave, in, Revue Africaine, n° 66, Alger, 1925, p: 255.

[37] A. M. Nettement: ***Histoire de la conquête d'Alger, écrite sur de documents inédite et authentique***, Librairie Jacques Locoffre, Paris-Lyon, 1867, p: 73.

[38] G. Esquer: ***Correspondance du Duc de Rovigo, commandant en chef, le corps d'occupation D'Afrique (1831-1833)***, T 02, Jourdan, Alger, 1920, p: 295.

[39] وقد ذكر "إسترهازي" أنه ضبط هذه الأرقام من رجل عمل مدة طويلة في منصب خوجة صغير لخليفة الباي. انظر/

- Esterhazy, op.cit, pp: 282-283.

[40] عبد القادر المشرفي: مصدر سابق، ص: 32.

[41] Archives du ministère de la guerre, Carton 227: ***Notice sur la province d'Oran***, par G. Tatareau, Capitaine du Corps Royal d'état major, Oran, 30 Avril, 1833.

- Marcel: «***Tableau Statistique de principale tribus du territoire de la province d'Oran suivant l'ancienne circonscription***.», in, Journal Asiatique, T 2, 1835, pp: 79-90.

اعتمادا على ما ذكره:

- X. Yacono: «***Peut-on évaluer la population de l'Algérie vers 1830 ?***», in, Revue Africaine, n° 98, Alger, 1954, pp: 279-280.

[42] ميز "مارسال" بين دواوير فليتة قليلة العدد، وفليتة الجمالة.

[43] تطابق غير مؤكد، ولا يتناسب مع حجم القبيلة وقوتها.